عقائد الإسلام

(٢)

الإمام يوسف القرضاوي

حقيقة التوحيد

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

شباب

النادي الشبابي

عقائد الإسلام
(٢)

حقيقة التوحيد

الإمام يوسف القرضاوي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: عقائد الإسلام
(٢)
حقيقة التوحيد
الطبعة التاسعة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م
اسم المؤلف: الإمام يوسف القرضاوي
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٩٦ صفحة ١٢ × ١٧ سم
رقم الإيداع: ٨٩/٤١٢٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-307-187-1

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to The Auther And Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد
إدارة الشئون الفنية

القرضاوي، يوسف القرضاوي.
حقيقة التوحيد / يوسف القرضاوي
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١٠
٩٦ صفحة؛ ١٢ سم
تدمك ١ ١٨٧ ٣٠٧ ٩٧٧

النادي الشبابي

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٤ شارع العباسية - القاهرة ت ٢٤٨٢٧٨٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالله أصل العقائد كلها

إن الإيمان بالله ـ أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة ـ هو روح الدين ، أي دين ، وكذلك هو روح الإسلام ، وأصل عقائده كلها ، كما بيَّنها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهذا القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها ، كما في قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (البقرة:١٧٧). وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١٣٦).

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ».

فالإيمان بالله هو الأصل ، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له ، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه ، تؤمن - بالتالي - بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره . فالإيمان بهذه كلها فرع عن الإيمان بالله ، ومبني عليه . ولا يتصور الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالمرسل ، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمجازِي والمحاسِب .

والإيمان بالله ، يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة ، والإيمان بوحدانيته في ربُوبيته وألوهيته ، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن كل نقص .

وقد تبين لنا من دراستنا السابقة : أن وجود الله تعالى حقيقة لا ريب فيها ، بل هي أظهر الحقائق على الإطلاق ، شهدت بذلك الفطر السليمة ، ودلت على ذلك العقول الرشيدة ، وأكد ذلك الراسخون في العلم بما شهدوا في الآفاق وفي أنفسهم من عجائب الإبداع والتسوية والتقدير والهداية .

وإذا كانت هذه الحقيقة الكبرى قد خفيت على بعض الناس ، فذلك على نحو ما قيل : من شدة الظهور الخفاء .

وإذا كان آخرون قد كابروا الفطرة المشتركة بين البشر ، وعاندوا منطق العقل والعلم ، وجحدوا بالله تعالى ، فهم بمثابة الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

• تركيز الإسلام على التوحيد :

والحق أن الإسلام لا يركز على الإيمان بوجود الله تعالى لاعتباره ذلك ضرورة فطرية ، ولكنه يركز غاية التركيز على عقيدة أخرى ، ضل الناس في شأنها ضلالاً بعيداً . وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لب عقائد الإسلام ، وروح الوجود الإسلامي : الإيمان بإله واحد فوق هذا الكون ، له الخلق والأمر ، وإليه المصير ، هو رب كل شيء ، ومدبر كل أمر ، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد ، وأن يُشكر ولا يُكفر ، وأن يُطاع ولا يُعصى ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام: ١٠٢، ١٠٣).

لقد جاء الإسلام والشرك بالله ضارب أطنابه في كل أنحاء العالم ، ولم يكن يعبد الله وحده إلا أفراد قلائل من الحنفاء في جزيرة العرب ممن يتعبدون على ما بقي سالمًا من ملة إبراهيم ، أو بقايا من أهل الكتاب سلموا من تأثير التحريفات الوثنية التي أفسدت الأديان الكتابية .

وحسبنا أن نعلم أن أمة كالعرب في جاهليتها غرقت في الوثنية إلى أذقانها . حتى إن الكعبة التي بناها محطم الأصنام لعبادة الله وحده ، بات في جوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا ، وحتى غدا في كل دار من دور مكة صنم يعبده أهلها .

بل روى الإمام البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الحجر الآخر ، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة ، فحلبنا عليه ، ثم طفنا به »!

وأكثر من ذلك أنهم كانوا يتخذون إلهًا من « العجوة » ، وكثيرًا ما كان يصطحبه أحدهم في سفره ، فإذا فني زاده وغلبه الجوع لم يجد بدًّا من أن يأكله! وإلى هذا النوع من الآلهة يشير القرآن بقوله : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣).

وفي بلد كالهند بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس لميلاد المسيح ، حتى قُدِّرَ عدد الآلهة حينئذ بـ ٣٣٠ مليونًا .

حتى الأديان السماوية دخلتها الوثنية فكدرت صفاءها ، ولوثت نقاءها : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٠) . فالمسيح عند النصارى إله حق من إله حق !

وهذا لون من الشرك انتشر في كثير من الأمم أن لله أبناء أو بنات يُعبدون من دون الله ، أو مع الله ، كما زعم ذلك الهنود قديمًا مع كرشينا وبوذا . وكما زعم العرب بالنسبة للملائكة الذين قالوا عنهم : بنات الله! وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٨).

من أجل هذا عني الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، علمًا وعملاً ، ومقاومة الشرك اعتقادًا وسلوكًا : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣).

• دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى :

لقد دلت على وحدانية هذا الإله وتفرده كل الدلائل فطرية وعقلية وسمعية . فالإنسان إذا تُرك لفطرته وجبلته - دون تدخل أو تلقين - يجد نفسه متجهًا إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون ، يدعوها رَغَبًا ورَهَبًا ، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد ، وتعصف به الكروب ، وينفض يده من عون الناس من حوله ، هنالك يتجه مخلصًا إلى ربه ، طارحًا ما كان يتوجه إليه - بتأثير الوهم ، أو الجهل ، أو الهوى ، أو البيئة - من آلهة زائفة من البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد !

وهذا ما أشار إليه القرآن فيما ذكرناه من قبل من قصة ركاب السفينة المشرفة على الغرق : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢).

وقد ذكرنا هذا مثلاً باعتباره دليلاً على وجود الله تعالى ، وهو نفسه دليل على وحدانيته ، فإن الإنسان حين تجرد من

العوامل الطارئة ، ورجع إلى خالص فطرته ، لم يتجه بدعائه ساعة الشدة والأزمة إلى الصنم أو الوثن ، بل اتجه إلى الله وحده ربه ورب كل شيء ، كما قال تعالى في وصف نفسية هؤلاء المشركين : ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

● **دلالة العقل :**

دل العقل كذلك على أن وراء هذا الكون مكونًا واحدًا ، فهذا الكون العريض الفسيح ـ على تنوع ما فيه من مخلوقات ، صغيرة وكبيرة ، حية وجامدة ، ناطقة وصامتة ، عاقلة وغير عاقلة ، علوية وسفلية ـ تحكمه قوانين واحدة ، تنطبق على الذرة ، كما تنطبق على المجرة ، حتى إن العالم الطبيعي حين ينظر إلى الذَّرة يجدها في تكوينها مشابهة للمجموعة الشمسية في تكوينها ولا فرق .

هناك قانون عام كقانون «الزوجية» ـ أعني الازدواج أو الثنائية في المخلوقات كلها ـ عرفه الناس قديمًا في الإنسان والحيوان في صورة الذكورة والأنوثة ، ولاحظوه في بعض النباتات كالنخل . ثم اكتشف العلم أن النباتات كلها

فيها تذكير وتأنيث ، بل الجمادات فيها هذا الازدواج في صورة الموجب والسالب في الكهرباء ونحوها ، بل الذرة التي هي لبنة البناء الكوني كله تتكون من شحنة موجبة وأخرى سالبة إلى جوار النواة . وكان هذا الاكتشاف العلمي الحديث تصديقًا لما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرنًا حين قرر هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس:٣٦). وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) . وهذه الكلية ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ حقيقة لا مجازية ولا أغلبية .

ومن الدلائل على وحدة هذا الكون : ما نشاهده بين أجزائه من تعاون وتناسق وتناغم ، بحيث يؤدي كل جزء منها مهمته بانتظام دون أن يصطدم بالأجزاء الأخرى أو يعوق سيرها ، أو يجور عليها . بل بالعكس يمدها بما تحتاج إليه مما عنده ، ويأخذ منها ما يفتقد هو إليه مما عندها ، كما رأينا من المبادلة القائمة بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية .

فهل عقدت اتفاقية بينهما لتحقيق هذه المقايضة الضرورية لحياة كل منهما؟ أم أن هناك مدبراً أعلى نظم العلاقة بين المملكتين على هذا النحو العجيب؟

ومن الذي نظَّم العلاقة بين الشمس والأرض ، وبين الأرض والقمر ، وبين القمر والشمس ، وبين كواكب المجموعة الشمسية بعضها ببعض ، وبين المجموعة الشمسية وملايين المجموعات النجمية الأخرى في مجرتنا إلكبرى ، وبين مجرتنا وملايين المجرات الأخرى ، بحيث تتعاون ولا تتصادم؟ ويجري كل شيء بحساب وميزان ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٥-٧). ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠).

إن هذه الوحدة المشهودة بعين البصر وعين البصيرة في الخلق كله ، لدليل ناصع على وحدة خالقه ، كما أنها ـ بالضرورة ـ دليل على وجوده .

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه ، واختل ميزانه ، ورأينا أثر كل خالق في الجزء الذي خلقه وهيمن عليه . وبذلك تختلف النواميس الكونية ، وتتناقض سنن الخلق ؛ نتيجة لاختلاف إرادات الخالقين ، وهذا يؤدي بالتالي إلى فساد الكون كله لا محالة .

وإلى هذا الدليل الكوني يشير القرآن الكريم حيث يقول عن السموات والأرض : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وفي سورة أخرى يقول القرآن : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(المؤمنون: ٩١).

ثم إن القول بوحدة الرب الأعلى ـ فضلاً عن دلالة الوحدة الكونية عليه ـ هو الذي يتفق مع منطق العقل البشري السوي . فالعقل ينشد الوصول إلى الوحدة من وراء الكثرة . ويتطلب أن يسير من الأسباب المتعددة إلى سبب واحد ، هو سبب الأسباب أو علة العلل . وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلقون على خالق الكون « العلة الأولى » .

• دلالة النقل :

ومع دلالة الفطرة والعقل ، جاءت الدلائل السمعية ، بما تناقلته الأجيال عن كتب الله تعالى ورسله إلى الأمم في مختلف الأمصار والأعصار من الدعوة إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له ، وإفراده تعالى بالعبادة . وإنكارهم على أقوامهم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا .

وهذا القرآن الوثيقة الإلهية المحفوظة التي تتمثل فيها هداية السماء للأرض ، يقص علينا من نبأ المرسلين الذين بُعثوا جميعًا بعقيدة التوحيد ، وهذا ما احتج به القرآن على المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى بأنهم ليس معهم دليل من العقل ولا من النقل .

لنستمع معًا إلى هذا المقطع من سورة الأنبياء حيث يتحدث القرآن عن المشركين بصيغة التوبيخ والإنكار : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢١، ٢٢) . ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٤، ٢٥).

وفي سورة «الأحقاف» يطالبهم القرآن بدليل نقلي على ما يدعون: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

• التوحيد جوهر الإيمان بالله:

وإذا عرفت - يا أخي - أن الإيمان بالله هو جوهر العقائد الإسلامية جميعًا فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو جوهر الإيمان بالله تعالى. وإذا تجرد عن التوحيد الحق، كان كفرًا وشركًا، ورجسًا وزورًا، وظلمًا عظيمًا، وضلالاً مبينًا.

ولهذا كان لزامًا عليك أيها المسلم أن تعرف حقيقة التوحيد الذي أمر الله به، وأقام عليه دينه، وأنزل به كتابه، وبعث به رسوله، وعلق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده، وجعل الجنة لأهله وأنصاره، والنار لخصومه وأعدائه - فإن كثيرًا من الطوائف نسبوا أنفسهم إلى التوحيد، وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص، وما عليه غيرهم هو الباطل.

وكل يدعي وصلاً لليلى ... وليلى لا تقر لذا وذاكا!

فأنصار فلسفة أرسطو ومن تبعه ممن سموا « فلاسفة المسلمين » تجد التوحيد عندهم يتمثل في : إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة ، بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء من الماهيات ، ولا يقوم به وصف ، ولا يتخصص بنعت ، بل صفاته كلها سلوب وإضافات . . حتى انتهى توحيد هؤلاء إلى إنكار ذات الرب الذي دعت إليه أديان السماء ، وإنكار خلقه للعالم ، وتدبيره له ، وعلمه بكل ما يجري فيه . . فهم يقولون بقدم الأفلاك ، وأن الله لا يبعث من في القبور ، وأن النبوة مكتسبة ، وأنها حرفة من الحرف . . وأن الله لا يعلم شيئًا من الموجودات المعينة ألبتة ، وأنه لا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم ، ولا شق الأفلاك ولا خرقها . . وأنه لا حلال ولا حرام ، ولا أمر ولا نهي ، ولا جنة ولا نار . . فهذا هو توحيد هؤلاء!!

وهل أتاك نبأ دعاة « وحدة الوجود »؟ إنهم يزعمون أنهم وحدهم الموحدون ، ومن عداهم فهم المعددون . فهل علمت ما توحيدهم المزعوم؟ توحيدهم : أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود

وحقيقته وماهيته . . وأنه آية كل شيء ، وله فيه آية تدل على أنه عينه . وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير . بل هو نفس الآية ، ونفس الدليل ، ونفس المستَدِل ، ونفس المستدَل عليه . فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود . فهو ـ عندهم ـ عين الناكح ، وعين المنكوح ، وعين الذابح ، وعين المذبوح ، وعين الآكل ، وعين المأكول . وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ، ورامت إفادته الهداية النبوية ، كما قال محققهم وعارفهم ابن سبعين!

ومن فروع هذا التوحيد وثماره : أن فرعون ونمروذ وأمثالهما مؤمنون كاملو الإيمان ، عارفون بالله على الحقيقة . وأن عُبّاد الأصنام إنما عبدوا عين الله لا غيره . فهم على الحق والصواب . . وأن لا فرق في التحليل والتحريم بين الأم والأخت وبين الأجنبية ، ولا بين الماء والخمر ، ولا بين الزواج والزنا . الكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .. وأن الأنبياء ضيّقوا الطريق على الناس ، وبعّدوا عليهم المقصود ، والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه!!

وإن ننس فلا ننسى هنا «توحيد المعتزلة» الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل. وجعلوا التوحيد أول أصولهم الخمسة.

تُرى ما مضمون هذا التوحيد؟

إنه إنكار قَدر الله تعالى، وجحد عموم مشيئته للكائنات، وقدرته عليها.. ومتأخروهم ضموا إلى ذلك توحيد «الجهمية» فأصبحت حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القَدر، وإنكار حقائق الأسماء الحسنى، والصفات العُلا.

وفي مقابل هذا التوحيد الأعرج يجيء توحيد «الجبرية» ومضمونه عندهم: تفرد الرب بالخلق والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا محدثين لأفعالهم، ولا قادرين عليها، وأن أفعالهم الاختيارية لا تعدو أن تكون مثل حركات الأشجار عند هبوب الرياح، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة ولا غاية تطلب بالفعل، وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب، بل ما ثَمَّ إلا مشيئة محضة، ترجح مثلاً على مثل، بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب ألبتة[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ج٣ ص٤٤٧-٤٤٩، ط. السنة المحمدية.

وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللين من عوام المسلمين ، وتوحيد مضلليهم ممن يَدَّعون المشيخة ، ويتزيون بزي الدين ورجاله الصالحين؟

إنهم يدعون غير الله ، ويرجون ويخافون غير الله ، وممن ادعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال أو غير ذلك من الألقاب .

فهم يطوفون بأضرحتهم يسألونهم أكثر مما يسألون الله ، ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله . يهرعون إليهم في الملمات ، يطلبون منهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله ، ولولا الواسطة لذهب ـ كما قيل ـ الموسوط!

وقبل هذا كله لا يغيب عنك «توحيد النصارى» ، فقد زعموا أن ديانتهم ديانة توحيدية ، وأنهم لم يخرجوا من دائرة التوحيد ، برغم اعتقادهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . . وهي : الأب والابن والروح القدس ، فهم عائلة أو شركة مقدسة : الإله الأب ، والإله الابن ، والأقنوم الثالث المسمى «روح القدس» .

فإذا قلت لهم : كيف تكونون موحدين مع قولكم بهؤلاء الثلاثة؟ قالوا : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة!! ولا مجال

للعقل والمنطق في أمر العقيدة ، فشعارهم هنا : اعتقد وأنت أعمى!!

من أجل ذلك كان من أوجب الواجبات بيان حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الإسلام ، وبنى عليه تعاليمه كلها ، حتى يتبين الحق من الباطل .

● **التوحيد المأمور به :**

إنه توحيد اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي سلوكي .

وبعبارة أخرى . . هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر : توحيد في المعرفة والإثبات والاعتقاد . . وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة .

فلا يُقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يقم بتوحيده سبحانه : علمًا واعتقادًا ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحيده كذلك : قصدًا وعملاً ، بأن يفرده عز وجل بالعبودية الكاملة ، والطاعة المطلقة ، والذل له والإنابة إليه والتوكل عليه والخشية منه والرجاء فيه . . إلخ .

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة «الإخلاص» بتمامها ، وأول سورة «آل عمران» ، وأول سورة «طه» ، وأول سورة «الم السجدة» ، وأول سورة «الحديد» ، وآخر سورة «الحشر» .. وغيرها .

والتوحيد بالمعنى الثاني هو ما تضمنته ، ودعت إليه ، ودلت عليه ، سورة : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وجملة سورة «الأنعام» ، وأول سورة «الأعراف» وآخرها ، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها ، وأول سورة «الزمر» وأواخرها . . وغالب سور القرآن . بل قال العلامة ابن القيم : إن كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد .

وقد جرى كثير من المصنفين قديمًا وحديثًا ، على تسمية النوع الأول من التوحيد «توحيد الربوبية» ، وعلى تسمية النوع الثاني «توحيد الإلهية» أو «الألوهية» .

وأحسبك أيها القارئ الكريم في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء على معنى كل من هذين المصطلحين ، حتى تكون على بينة من ربك ، وبصيرة من دينك ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة . فما معنى توحيد الربوبية؟ وما معنى توحيد الألوهية ؟

• أولاً : توحيد الربوبية

ومعناه اعتقاد أنه تعالى رب السموات والأرض وخالق مَنْ فيهما وما فيهما ، ومالك الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ، ولا مُعَقِّب عليه في حكمه ، فهو وحده رب كل شيء ، ورازق كل حي ، ومُدَبِّر كل أمر ، وهو وحده الخافض الرافع ، المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، وكل مَنْ سواه وما سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ، إلا بإذن الله ومشيئته . وهذا القسم من التوحيد لم يجحده إلا الماديون الملحدون الذين ينكرون وجود الله تعالى ، كالدهريين قديمًا ، والشيوعيين في عصرنا . ومثل الماديين «الثنوية» الذين يعتقدون أن للعالم إلهين . إلهًا للنور وإلهًا للظلمة ، أما معظم المشركين كالعرب في الجاهلية فكانوا يعترفون بهذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت: ٦١). ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت: ٦٣). ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ

وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٨٤-٨٩).

فهذه أجوبة المشركين ، تدل على أنهم يقرون بربوبية الله تعالى للكون وتدبيره لأمره ، وكان مقتضى إيمانهم بربوبيته تعالى للكون أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادة ربهم أحدًا ، ولكنهم أنكروا القسم الآخر من التوحيد هذا ، وهو توحيد الإلهية أو الألوهية .

• ثانيًا : توحيد الألوهية

ومعنى توحيد الألوهية ، إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة ، فلا يُعبد إلا الله وحده ، ولا يُشرك به شيء في الأرض أو في السماء . ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية ؛ فإن

هذا وحده لا يكفي ، فالعرب المشركون كانوا يقرون به ، ومع هذا لم يدخلهم في الإسلام ؛ لأنهم أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا ، واتخذوا مع الله آلهة أخرى ، زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، أو تشفع لهم عند الله .

والنصارى لم ينكروا أن الله رب السموات والأرض ، ولكنهم أشركوا به المسيح عيسى ، واتخذوه إلهًا من دون الله ، واعتبر القرآن هؤلاء وأولئك كفارًا تحرم عليهم الجنة ، ويخلدون في النار .

ومنذ أقدم العصور ضل الناس عن هذا التوحيد ، فعبدوا من دون الله آلهة شتى . عبد قوم نوح : وَدًّا وسواع ويغوث ويعوق ونسرًا . . وعبد قوم إبراهيم : الأصنام . . وعبد قدماء المصريين : العجل . . وعبد الهندوس : البقر . . وعبد أهل سبأ : الشمس . . وعبد الصابئون : الكواكب . . وعبد المجوس : النار . . وعبد العرب : الأوثان والحجارة . . وعبد النصارى : المسيح وأمه . . وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله . فهؤلاء كلهم مشركون ؛ لأنهم لم يفردوا الله تعالى بالعبادة التي لا تُستحق لأحد غيره .

ولكن ما معنى « العبادة » التي هي من حق الله وحده؟

• معنى العبادة :

العبادة كلمة تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر ، فصارا شيئًا واحدًا . وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب . فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة . فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب ، فلا يحقق معنى العبادة . . وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب لا يحقق العبادة ، بل لابد من كل الخضوع مع كل الحب .

• صور العبادة وأنواعها :

والعبادة ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس ، بل لها أنواع وصور عديدة . .

(أ) فمنها : الدعاء ـ أي الاتجاه إلى الله تعالى بطلب نفع أو دفع ضر ، أو رفع بلاء ، أو نصر على عدو ، أو نحو ذلك . فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العبادة وروحها كما في الحديث : « الدعاء هو العبادة » . (رواه الترمذي) .

(ب) ومنها : إقامة الشعائر الدينية ، مثل : الصلاة والصيام والصدقة والحج والنذر والذبح وما شابه ذلك . فلا يجوز أن

توجه هذه الشعائر إلا لله (لا يجوز الصلاة لغير الله ولا الصيام والصدقة والنذر والذبح وغيرها من الشعائر).

(جـ) ومنها : الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام ، أحل بها الحلال وحرَّم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة ، فلا يجوز لمن آمن بالله ربًا أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين ، يخضع لها ويحكِّمها في حياته بغير سلطان من الله ، فهذا ضرب من العبادة .

● أهمية توحيد الألوهية :

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها ، وهو الذي وَجَّهَ الرسل الكرام أكبر عنايتهم إليه ، كما سيأتي . . وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة « التوحيد » .

وهو الذي بعث الله به رسله ، وأنزل كتبه . وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، ومن أجله حُقت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، ونُشرت الدواوين ، ونُصبت الموازين ، وقامت سوق الجنة والنار ، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد . فريق في الجنة وفريق في السعير .

لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة ، هذا العنوان هو كلمة « لا إله إلا الله » التي تسمى « كملة التوحيد » أو « كلمة الإخلاص » أو « كلمة التقوى » .

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، فهو وحده الإله الحق ، وما عداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الحج: ٦٢).

والإله هو : المعبود بحق ـ أي المحبوب المطاع ، الذي يستحق أن يعبد ـ وذلك لما اتصف به من صفات الكمال ، التي تقتضي أن يُخص بنهاية الحب ونهاية الخضوع ، وهما معنى العبادة ، فإن الإله ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ : هو الذي تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في

مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه . . وليس ذلك إلا الله وحده .

ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام وأفضله ، وكانت رأس الأمر ، وأحسن الحسنات ، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله » .

• التوحيد هو المهمة الأولى للرسل :

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعًا ، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعًا من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام .

إن المهمة الأولى للرسل الذين بعثهم الله هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين كلاهما لازم للآخر ومكمل له :

الأول : الدعوة إلى عبادة الله وحده .

الثاني : الدعوة إلى اجتناب الطاغوت .

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦).

ويقول مخاطبًا النبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف: ٥٩) . . هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم .

هكذا نجد نوحًا أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه : ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾(هود: ٢٥، ٢٦).

والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك ربًّا يعبد ، يقول : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتناب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد ، كما يبدو ذلك واضحًا في القرآن والسنة ، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه .

• التوحيد شعار الإسلام :

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعارًا له يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة ، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه « دين التوحيد » ، وصار عنوان الإسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل باب الإسلام . أولى هاتين الكلمتين : « شهادة أن لا إله إلا الله » ، والثانية : أن يشهد « أن محمدًا رسول الله » .

وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية ، بل أكثر من يومية ، حيث يكررها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهده ، وخمس مرات في إقامته ، ولم يكتف الإسلام بذلك ، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات ؛ ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائره بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

ومن روائع الإسلام أنه سن للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي ، يؤذن به في أذنه اليمنى ؛ لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس .

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له ، ثم حضرته الوفاة ، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد :« لا إله إلا الله ».

وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد ، وآخر ما يودع به الحياة هو كلمة التوحيد ، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت ليس له مهمة غير إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

● التوحيد حق الله على العباد :

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيَّن أن التوحيد هو حق الله على عباده الذي لا يجوز التفريط فيه،ولا الغفلة عنه..

روى الشيخان البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي :« يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا » . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس؟ قال : « لا تبشرهم فيتكلوا ».

والسر في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم ، وأمده بنعم لا تُحصى ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته ، وآتاه العقل ، وعلّمه البيان ، فمن حق هذا الخالق الرازق ، المنعم المعلم ، الرحمن الرحيم ، أن يُشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع فلا يُعصى .

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيده هو أول وصايا القرآن ، كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة المبدوءة بقوله تعالى :﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (النساء:٣٦) ... الآية . وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة « الأنعام » : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الأنعام:١٥١).. الآيات . ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة « الإسراء » المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٢،٢٣) . . . الآيات .

• التوحيد رسالة المسلم في الحياة :

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودعها بالتوحيد ، فإن وظيفته بين مهد الطفولة وفراش الموت ، هي إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

ويقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الإنس والجن :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾(الذاريات: ٥٦، ٥٧).

بينت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم ؛ ليعبدوه وحده لا شريك له ، فهذه هي الغاية والحكمة من خلقهم . لم يخلقهم الله تعالى ؛ ليأكلوا ويتمتعوا ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يعرفوا الله جل شأنه ، ويقدروه حق قدره ، ويخصوه بالعبادة ضارعين خاشعين .

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفة حياته ، وهي عبادة الله وحده ـ فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء ، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً .

• التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم :

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة ، هو أيضًا رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله ، وإلى الأمم جميعًا . ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها ، بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤).

وقد كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد الفرس ربعى بن عامر في حرب القادسية : من أنتم؟ وما مهمتكم؟ أجابه بقوله :« نحن قوم بعثنا الله ؛ لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ».

بماذا يتحقق التوحيد؟

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعني الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته ـ لا يتحقق وترسخ جذوره وتمتد فروعه ، إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .

العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممن عبدها أو والاها من دون الله .

العنصر الثالث : اتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .

أولاً - إخلاص العبودية لله :

أما إخلاص العبودية لله تعالى فمعناه : إعطاء الألوهية حقها الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

١- ألا يبغي الإنسان غير الله ربًّا يعظمه كما يعظم الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:١٦٤). فكل ما اتخذه الناس من أرباب عبدوها أو عظموها من دون الله أو مع الله يجب أن يسقط

ويزول سواء أكانت أربابًا من الحجر أم من البشر ، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٢- ألا يتخذ غير الله وليًّا يحبه كحب الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١٤).

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

إلى أن قال تعالى في شأنهم : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٧).

والمعنى : أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حبًّا ممتزجًا بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ وكيف بمن أحب الند وحده ولم يحب الله؟!

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله ، ولا يتخذ وليًا ولا ندًا يحبه كحب الله ، فالولاية لا تكون إلا لله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:٩).

٣- ألا يبتغي غير الله حكمًا ، يطيعه كما يطيع الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام:١١٤).

وذلك أن الذي له حق الحكم في شئون عباده والتشريع لهم في أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده ، العليم بخلقه ، الرحيم بهم ، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤).

ومن هنا قرر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٤٠).

كما اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجًا عن حقيقة الإيمان ، ودخولاً في طاعة الشيطان : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦٠، ٦١).

ثانيًا - الكفر بالطواغيت :

كان العنصر الأول في تحقيق التوحيد هو إخلاص العبودية لله ، وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه .

أما العنصر الثاني ، فهو الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله ، حتى إن القرآن الكريم قدَّم أحيانًا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حُرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » . (رواه مسلم).

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد ، عاصمًا للدم والمال ، حتى يضم إليه الكفر بما يُعبد من دون الله .

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل ، والبراءة من أهله .

ولهذا أعلن إمام الموحدين - إبراهيم عليه السلام - براءته من آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ (الزخرف:٢٦،٢٧). وقال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة:٤).

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلى الإيمان بالله وعبادته ، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه ، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعًا إلى قومهم ما عرفنا من قبل : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦).

ولكن ما معنى الطاغوت ؟

الطاغوت كلمة مشتقة من « الطغيان » وهو مجاوزة الحد . وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه ، فقال عمر رضي الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضي الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبِدَ من دون الله .

وهذه الأقوال تُذكر أمثلة للطاغوت ، ولكنها لا تحصر كل أفراده . وأضبط تحديد لمعنى الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله ، قال : « الطاغوت » كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

ثالثًا - اتقاء الشرك والحذر منه :

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره، جليه وخفيه ، والتحرر من كل شائبة للشرك ، والحذر من منافذه ومداخله . إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز إلا بضده ، فلهذا لا يُعرف التوحيد خالصًا متميزًا إلا بمعرفة ضده وهو الشرك .

فما هي حقيقة الشرك؟

* * *

الشرك

الشرك : أن يجعل المرء لله شريكًا فيما هو من خالص حقه سبحانه ، كأن يتخذ مع الله إلهًا أو آلهة ، يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها أو يحبها أو نحو ذلك مما لا يستحقه إلا الله جل شأنه .

وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يقبل معه عمل صالح ، بل لا يصلح معه عمل ؛ لأن أول شرط لقبول العمل وصلاحه أن يكون خالصًا لله ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠).

وهذا الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨).

والجنة حرام على المشرك ، كما أن النار مأواه ومثواه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

• أنواع الشرك

الشرك نوعان : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

فالشرك الأكبر هو الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة أبدًا .

والشرك الأصغر من كبائر الذنوب التي يُخشى على من اقترفها وأصر عليها أن يموت كافرًا ، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب قبل موته .

• الشرك الأكبر جلي وخفي :

والشرك الأكبر أيضًا نوعان : ظاهر جلي ، وباطن خفي .

فمن الشرك الأكبر الظاهر : عبادة إله أو آلهة مع الله سواء أكان هذا الإله كوكبًا كالشمس والقمر ، أو كان جمادًا كالأصنام والحجارة ، أو كان حيوانًا كالعجل والبقر ، أو إنسانًا كالذين عبدوا فرعون وأمثاله من الملوك الذين ادعوا الألوهية أو ادعيت لهم ، ووجدوا في الناس من يصدقهم ، وكذلك الذين عبدوا « بوذا » أو المسيح عيسى ابن مريم ، أو كان من المخلوقات المغيبة عنا مثل الجن والشياطين والملائكة . . وقد وُجِدَ له عُبَّاد في أمم شتى .

من الشرك الأكبر الخفي : الدعاء والاستعانة بالموتى :

ومن الشرك الأكبر نوع خفي ، يخفى على كثير من الناس ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى ، وتفريج الكربات ، وإغاثة الملهوف ، والنصر على العدو ، مما لا يقدر عليه إلا الله ، واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون . وهذا أصل شرك العالم ، كما قال ابن القيم .

وسبب خفاء هذا الشرك أمران :

١- أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة إنما تنحصر في الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

والحقيقة أن روح العبادة ـ كما ذكرنا ـ هو الدعاء ، كما جاء في الحديث : « الدعاء هو العبادة » .

٢- أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا ، بل نعتقد أنهم

مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده .

وهذا من جهلهم بالله ، جل جلاله ، فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين ، لا يُستطاع الوصول إليهم إلا بوسطاء وشفعاء .

وهو نفس الوهم الذي سقط فيه المشركون قديمًا حين قالوا عن آلهتهم وأصنامهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣). ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:١٨).

ولم يعتقدوا يومًا أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف:٩). ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس:٣١).

ومع هذا الاعتقاد في الله تعالى ، أنه خالق السموات والأرض ، وأنه الرزاق المدبر المحيي المميت ، والاعتقاد في

الأصنام أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله . . مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك ، وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا : « لا إله إلا الله » فمن قالها فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام .

إن الله تعالى غني عن الوسائط والشفعاء ، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:١٨٦). ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠). وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول ، ليس عليه حاجب ولا بواب .

● من الشرك الأكبر : اتخاذ غير الله مشرعًا :

ومن الشرك الأكبر الذي يدق ويخفى أيضًا على كثير من الناس : اتخاذ غير الله مشرعًا أو ابتغاء غير الله حَكَمًا . وبعبارة أخرى : إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم أو لغيرهم من البشر ، فيحلون لهم ويحرمون عليهم ما شاءوا ، ويشرعون لهم من الأنظمة والقوانين ، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار ، ما لم يأذن به الله تعالى ، وما يضاد شرع الله سبحانه ، فيتبعهم الآخرون

ويطيعونهم فيما شرعوا ووضعوا ، كأنه شرع إلهي ، أو حكم سماوي ، يُطاع ولا يُعصى .

إن الذي له الحق في التشريع لخلقه هو الله وحده ، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فمن حقه وحده أن يكلفهم ويأمرهم وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم ؛ لأنه رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وليس لأحد غيره من الربوبية والمُلك والألوهية ما له ، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع .

إن العالم هو مملكة الله تعالى ، والناس في هذه المملكة عبيده ورعاياه ، وهو سبحانه سيد هذه المملكة وحاكمها ، فله وحده أن يحكم ويشرع ويُحَلِّل ويُحَرِّم ، وعلى الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

فمن ادعى من رعية هذه المملكة أن لأحد فيها حق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والحكم والتشريع دون إذن من سيد المملكة أو حاكمها ـ فقد جعل من بعض عبيد الملك شريكًا له في المُلك ، منازعًا له في سلطة السيادة ، وفي اختصاصه بالحكم والسلطان .

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشرك ، وسماهم مشركين ؛ لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم ، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم وما حرَّموا عليهم ، وقرن القرآن ذلك بعبادتهم للمسيح ابن مريم ، سواء بسواء ، قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(التوبة: ٣١).

وهذه الآية قد فسرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي ، وكان نصرانيًّا في جاهليته ، وذلك أنه لما جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال عدي : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ : « بلى ، إنهم حرَّموا عليهم الحلال ، وحلَّلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم »[1].

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه . . وغيرهما .

فقد دلت هذه الآية وما فسرها من حديث رسول الله ﷺ على أن من أطاع غير الله في معصية أو اتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا ، وجعله لله شريكًا ، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله ، والذي دلت عليه كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم عبادة لهم ، وسماهم أربابًا ، أي شركاء لله تعالى في العبادة . وهذا هو الشرك الأكبر ، فكل من أطاع مخلوقًا واتبعه على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا وإن لم يسمه بذلك، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام:١٢١) . ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى:٢١).

وإذا كان هذا حكم القرآن والسنة فيمن اتخذ غير الله مشرعًا ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فكيف بمن جعل نفسه لله ندًّا ، فأعطاها حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الألوهية؟!

● ألوان من الشرك الأصغر :

ودون الشرك الأكبر توجد ألوان وأنواع أخرى من الشرك ، تسمى « الشرك الأصغر » وهو من كبائر الذنوب ، بل أعظم عند الله من سائر الكبائر . . . منها :

* الحلف بغير الله :

ومن الشرك الأصغر : الحلف بغير الله تعالى ، كأن يقسم بالنبي أو بالكعبة الشريفة ، أو بولي من الأولياء ، أو كبير من الكبراء ، أو يقسم بالوطن ، أو بالآباء والأجداد أو بغير ذلك من المخلوقات ، فكل ذلك من الشرك ، ففي الحديث : « ... ومن حلف بغير الله فقد كفر - أو أشرك » ، (رواه الترمذي وحسنه).

وذلك لأن في القَسم تعظيمًا للمقسم به ، والذي ينبغي أن يُخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده ؛ لهذا جاء النهي عن الحلف بغيره ، قال ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » . وقال : « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليذر ». وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا ».

ومن المعلوم في الدين ، أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك - وإن كان شركًا أصغر - أكبر من كل الكبائر ، في نظر فقهاء الصحابة رضي الله عنهم [1].

* **لبس الحلقة والخيط :**

التوحيد لا ينافي اتخاذ الأسباب التي وضعها الله في الكون ، كاستعمال الطعام للشبع ، والماء للري ، والدواء للعلاج ، والسلاح للدفاع ، ونحو ذلك من الأسباب التي جعلها الله مؤدية إلى مسبباتها .

فإذا مرض الإنسان وعرض نفسه على طبيب ، وقرر له استعمال دواء أو إجراء جراحة ، أو غير ذلك ، فقام به ونفذه ، فليس ذلك خروجًا عن التوحيد .

---

(١) الحالف بغير الله لا وفاء عليه ولا كفارة ؛ لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له ، وإنما عليه أن يستغفر الله تعالى وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : «من حلف وقال في حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله». (رواه البخاري) .
بين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد لا الإطعام ولا الصيام .

إنما ينافي التوحيد اللجوء إلى أسباب خفية لم يشرعها الله ، لرفع البلاء بعد وقوعه أو للوقاية منه قبل وقوعه فيما زعموا .

ومن ذلك لبس حلقة من المعدن ، أو وضع خيط يُربط بالعضد ، فقد روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين ، أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة ـ أُراه قال : من صُفْر ـ فقال : « ويحك ما هذه »؟ قال : من الواهنة . قال : « أَمَا إنها لا تزيدك إلا وهنًا ، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ، ما أفلحت أبدًا » .

وإنما غلَّظ ﷺ في الإنكار على الرجل ؛ تحذيرًا من الشرك بكل صوره وتعليمًا للصحابة أن يسدوا هذا الباب جملة وتفصيلاً .

ولهذا حين دخل حذيفة بن اليمان على مريض يعوده ، فوجد في عضده سيرًا أو خيطًا يدفع به الحمى لم يسعه إلا أن قطعه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف:١٠٦).

* تعليق التمائم :

ومن هذا الباب : تعليق التمائم ، وهي جمع تميمة ، وهي خرزة أو خرازات كان العرب يعلقونها وخاصة على الأولاد ، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن أو تقيهم العين ونحوها ، فأبطلها الإسلام ، وعلّمهم أن لا دافع ولا مانع إلا الله تعالى .

روى أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعًا : « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ». وفي رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك » . ومعنى « تعلق تميمة » أي علقها متعلقًا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر .

وإنما كانت شركًا ؛ لأن فيها طلب دفع الضر من غير الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(الأنعام:١٧).

ومن هذه التمائم ما يسمى « الجامعة » أو « الحرز » أو « الحجاب » أو ما شابه ذلك من الأسماء ، فكلها من كبائر المنكرات ، وإزالتها واجبة على كل مستطيع . جاء عن سعيد بن جبير : أنه من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة ، أي كمن أعتق رقبة .

فإذا كانت التميمة من آيات القرآن ، أو تشتمل على أسماء الله تعالى وصفاته ، فهل تدخل في النهي عن التمائم أم تُستثني منه ويجوز تعليقها؟

اختلف السلف في ذلك ، فبعضهم رَخَّص فيها ، وبعضهم منع . والذي نختاره هو المنع من التمائم كلها وإن كانت من القرآن ؛ لعدة أدلة :

أولاً : عموم النهي عن التمائم ؛ فإن الأحاديث لم تستثنِ منها شيئًا .

ثانيًا : سد الذريعة ؛ فإن الترخيص في تعليق التمائم إذا كانت من القرآن ، يفتح الباب لتعليق غيرها . وباب الشر إذا فُتِحَ لا يُسَد .

ثالثًا : أن هذا يُعَرِّض القرآن للامتهان ، حيث يحمله من علَّقه في الأماكن النجسة ، وفي وقت قضاء الحاجة ، وفي حالة الجنابة والحيض ، ونحوها .

رابعًا : أن في ذلك استخفافًا بالقرآن ومناقضة لما جاء له ، فإن الله أنزله ليهدي الناس للتي هي أقوم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لا ليتخذ تمائم وأحرازًا للنساء والأطفال .

* الرُّقَى :

ومما ينافي التوحيد : الرقى وهي كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات ، مستعينين بالجن أو مرددين بعض الأسماء الأعجمية أو الألفاظ غير المفهومة . فجاء الإسلام فأبطل ذلك ، كما في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك » .

وقد جاء في الأثر : أن عبد الله بن مسعود ﷺ رأى يومًا في عنق زوجته خيطًا فسألها : ما هذا؟ فقالت : خيط رُقِيَ لي فيه من الحمى . فجذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » . فقالت : لقد كانت عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فإذا رقى سكنت . فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول : « أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقمًا » .

فالرقى المحرمة ما كان فيها استعانة بغير الله تعالى ، أو كانت بغير اللسان العربي ، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك .

وما عدا ذلك فلا بأس بالرقية به ، ففي « صحيح مسلم » عن عوف بن مالك قال : كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك؟ فقال : « اعرضوا عليَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا » .

وقال السيوطي : فقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١- أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو صفاته .

٢- وباللسان العربي وما يُفهم معناه .

٣- وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى .

والتولة المذكورة في الحديث هي ضرب من أعمال السحرة لتحبيب الرجل إلى امرأته أو المرأة إلى زوجها .

*** السحر :**

ومن الشرك الذي حذَّر منه الإسلام : السحر ، وهو ضرب من التخييل والإيهام ، ومنه ما هو عزائم ورقى وعقد ونفث .

وإنما كان شركًا ؛ لأن فيه استعانة بغير الله تعالى من الجن والشياطين أو الكواكب ونحوها ، ولهذا جاء في الحديث : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك » . وهو من كبائر الذنوب في الإسلام وفي الأديان السماوية كلها ، جاء في القرآن على لسان موسى عليه السلام قوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه:٦٩) . ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٨١) . . وقد عدَّه النبي ﷺ في السبع الموبقات بعد الشرك .

وعلَّمنا القرآن أن نستعيذ بالله من شر السحر وأهله ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ (الفلق:٤) أي السواحر ، فإن السحرة إذا أرادوا عمل السحر ، عقدوا الخيوط ، ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون . ومعنى النفث : النفخ مع شيء من الريق .

وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أن الساحر كافر ، وأن السحر كفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم .

وجاء عن عدد من الصحابة أن عقوبة الساحر ضربه بالسيف .

ففي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين، وعن جندب من الصحابة رضي الله عنهم.

وفرق بعضهم بين من يستعين في سحره بالكفر فيكفر، وإلا فهو فاسق.

وكما أن السحر حرام فإن المصدق لأهله، الساعي إليهم لعمل السحر، شريك لهم في الإثم، قال ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، ومصدق بالسحر، وقاطع الرحم» - (رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه»).

*** التنجيم من السحر:**

ومن أنواع السحر: ما يُعرف باسم التنجيم، والمراد به هنا ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامة وخاصة عن طريق النجوم والنظر فيها. وهذا ضرب من السحر والدجل، جاء في الحديث: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر». (رواه أبو داود بإسناد صحيح).

وليس هذا الحديث فيمن يتعلم من علم النجوم أبعادها ومنازلها وأحجامها ومداراتها ونحو ذلك بما يعرف بالملاحظة وآلات الرصد ونحوها . وهو ما يعرف باسم « علم الفلك » . . فهذا علم له أصوله وقواعده ووسائله .

ولكن هذا الحديث فيمن يتعلم من هذا العلم ما يؤدي إلى الكفر ، كادعاء معرفة الغيب ، فهذا من السحر والشرك ؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

*** التِّوَلة سحر وشرك :**

ومن السحر : ما شاع من قديم بين السحرة ، وهو كتابة بحروف وكلمات وتعليق بعض الأشياء ونحو ذلك ، بدعوى تحبيب المرأة إلى الرجل ، أو تحبيب الرجل إلى المرأة .

وقد سبق في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك » .

*** الكهانة والعرافة :**

ومثل المنجم : الكاهن والعرَّاف .

والكاهن هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل ، أو هو الذي يُخبر عما في الضمير .

والعرَّاف اسم للكاهن والمنجم والرَّمال ومن شابه هؤلاء من كل من يدعي معرفة المغيبات ، سواء ما يكنه المستقبل

أو ما يكنه الضمير . وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن أم النظر أو الخط في الرمل أو قراءة الفنجان أو خلاف ذلك .

روى مسلم في « صحيحه » أن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافًا ، فسأله عن شيء فصدَّقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا » .

وروى أبو داود عنه ﷺ : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ـ ﷺ » .

وذلك لأن مما أنزل على محمد ﷺ أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل:٦٥). ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام:٥٩) . ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن:٢٦،٢٧) . . حتى النبي ﷺ لم يكن ليعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحي ، ولهذا خاطبه بقوله : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٨).

كما أن الجن الذين يستعين بهم السحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب ، وقد ذكر القرآن عن جن سليمان أنهم لم يعلموا موت سليمان : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤).

ولهذا كان تصديق الكهنة و العرافين - في زعمهم معرفة الغيب - كفرًا بما أنزل الله من آيات بينات .

وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة في الدين ، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرَّافين أنفسهم؟ إنهم براء من الدين كما أن الدين بريء منهم ، جاء في الحديث : « ليس منَّا من تطيَّر أو تُطُيِّر له ، أو تَكهن أو تُكُهِّن له ، أو سَحر أو سُحِر له » . (رواه البزار بإسناد جيد) .

*** النذر لغير الله :**

ومن الشرك : النذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها . ذلك أن النذر عبادة وقُربة ، والعبادة لا يجوز أن توجه إلا إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(البقرة: ٢٧٠). والمراد بالظالمين في الآية : المشركون .

فإن الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك .

قال بعض العلماء : النذر الذي ينذر له أكثر العوام ـ على ما هو مُشَاهَد ـ كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى مقبرة بعض الصالحين ، ويقول : يا سيدي فلان ، إن رد الله غائبي ، أو عُوفي مريضي ، أو قُضيت حاجتي ، فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا ـ فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه :

منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك .

منها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر .

ثم قال : إذا عَلِمتَ هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، ويُنقل إلى ضرائح الأولياء ؛ تقربًا إليها ـ فحرام بإجماع المسلمين .

وإذا كان هذا النذر حرامًا ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :

الأول : أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ وقد قال : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». (رواه مسلم) .

الثاني : أنه نذر لغير الله فهو شرك ، والشرك لا حُرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات ، لا يجب الوفاء به ، ولا كفارة فيه ، وليس فيه إلا الاستغفار ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بيَّنت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به ، ففي «صحيح البخاري» عن عائشة مرفوعًا : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

وعن ثابت بن الضحاك ، أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً ببُوَانة ، فسأله النبي ﷺ فقال : «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد»؟ قالوا : لا . قال : «فهل كان فيها عيد من أعيادهم»؟ قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : «أوفِ بنذرك ؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم» . (رواه أبو داود).

*** الذبح لغير الله :**

ومن الشرك : تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير الله تعالى . فقد جرت عادة المشركين في كل أمة أن يتقربوا بذبائحهم

إلى آلهتهم وأصنامهم ، فأبطل الإسلام ذلك وحرم ﴿ مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (المائدة:٣) [١] أي ما ذُكِرَ عليه اسم غير الله من صنم أو نحوه ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (المائدة:٣) أي ما نُصِبَ من حجر أو شجر أو صنم ؛ ليُعبد أو يُعظَّم أو يُتبرك به . وأمر أن يكون الذبح لله وحده .

ولهذا أمر الله رسوله أن يجعل صلاته ونحره لله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر:٢)، وأن يعلن في المشركين ، أن هديه مخالف لهم في صلاته ونُسُكه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣). والنسك هو الذبح بقصد التقرب .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثًا [٢] ، لعن الله من غيَّر منار الأرض » [٣] . (رواه مسلم) .

---

(١) بلفظ : ﴿ وما أهل . . . . ﴾ .

(٢) آوى محدثًا : حمى مجرمًا يستحق العقاب بأن تستر عليه أو نصره بنفوذه وسلطانه .

(٣) غير منار الأرض : أي معالمها وحدودها . وذلك ليدخل في ملكه ما ليس من حقه .

وعن طارق بن شِهاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب » ـ أي بسبب ذباب ـ قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يُقَرِّب إليه شيئًا ، فقالوا لأحدهما : قَرِّب . قال : ليس عندي شيء أقَرِّب . قالوا له : قَرِّب ولو ذبابًا . فقرَّب ذبابًا ، فخلُّوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قَرِّب . فقال : ما كنت لأقَرِّب لأحد شيئًا دون الله ، عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » . (رواه أحمد).

أثنى النبي ﷺ على هذا الرجل المؤمن وأخبر عن دخوله الجنة ؛ لأنه صبر على القتل ، ولم يرضَ بتقديم أي شيء لغير الله ، عز وجل . لأن القضية قضية مبدأ قبل أي شيء . ومن قَبِل أن يُقَدِّم لغير الله ذبابًا أوشك أن يُقَدِّم بعد ذلك جملاً !

ومن حرص الإسلام على التوحيد ومجانبة الشرك : أنه أمر ألا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله ، كما في حديث ثابت بن الضحاك السابق في الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة .

* الطِّيَرة شرك :

ومن الشرك :« الطيرة » ، ومعناها التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة أو الأشياء المرئية أو نحو ذلك ، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك ، فقد دخل في الشرك ؛ لأنه لم يخلص توكله على الله ، ولأنه التفت إلى سواه ، وجعل للتطير في قلبه نصيبًا .

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » . فقالوا : فما كفارة ذلك؟ قال : « أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » .

وأما ما يجده الإنسان في نفسه من انقباض أو توجس للشر من بعض الأشياء فلا يؤثر ولا يضر ، إذا مضى في طريقه متوكلاً على الله ، ولم يرده التطير عن قصده وغايته . روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا ، إلا . . ولكن يذهبه الله بالتوكل » .

ومعنى «وما منا إلا . . » أي ما منا أحد إلا وقر في قلبه شيء من ذلك بمقتضى الضعف البشري ، ولكن مزية المؤمن أن الله يذهب من قلبه تلك الخواطر من أثر توكله على الله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣).

وضد الطيرة : الفأل . وهو توقع الإنسان الخير ، بناء على كلام سمعه أو شيء أبصره أو نحو ذلك .

وكان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن ، ففي الحديث : «يعجبني الفأل» . قالوا : وما الفأل؟ قال : «الكلمة الطيبة».

مثال التفاؤل : أن يكون رجل مريض ، فسمع آخر يقول : يا سالم ، فيتفاءل بالسلامة والصحة . . فهذا أمر حسن ؛ لأنه داعٍ إلى سعة الأمل وحسن الظن بالله تعالى ، بخلاف الطيرة ؛ فإن فيها سوء الظن بالله تعالى وتوقع البلاء من غير سبب يُفضي إليه .

* * *

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، وحارب الشرك أكبره وأصغره ، وحذَّر منه أشد التحذير ، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التي تهب منها ريح الشرك .

من هذه المنافذ ما يأتي :

● الغلو في تعظيم النبي ﷺ :

نهى النبي ﷺ عن الغلو في تعظيمه ومدحه فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » . (متفق عليه).

والقرآن الكريم أثنى عليه ﷺ بالعبودية لله في أشرف المقامات ؛ تأكيدًا لهذا المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾(الكهف: ١).

وقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١).

وقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠).

وكان صلوات الله عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في شخصه ، زجر من قال ذلك أو فعله ، ونبهه إلى الحق والسداد .

روى أبو داود بسند جيد عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا . قال : « السيد : الله تبارك وتعالى » .

وعن أنس أن أناسًا قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . . أنا محمد عبد الله ورسوله . وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل ». (رواه النسائي بسند جيد) .

ولما قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتني لله ندًّا؟ قل : ما شاء الله وحده » . (رواه النسائي).

● الغلو في الصالحين :

ومما نهى عنه الإسلام وحذَّر منه : الغلو في شأن الصالحين .

فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابنًا لله ، أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم .

وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابًا من دون الله ، من هنا حذَّر الله من غلو أهل الكتاب وشنَّع عليهم في ذلك فقال : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١)، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧).

وأول شرك وقع في الأرض ـ هو شرك قوم نوح ـ كان سببه الغلو في الصالحين . جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس في الحديث عن آلهتهم «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» قال : «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا . . ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم ، عُبِدَت» .

وقال بعض السلف : لما ماتوا عَلَّقوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم الله ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات - يؤدي إلى أنواع من الشرك ، كالنذر لهم والذبح لهم والاستعانة بهم ، والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر ، وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيرًا في الوجود ، وراء الأسباب والسنن الكونية ، فيُدْعَون من دون الله أو مع الله ، وهذا هو الإثم العظيم والضلال البعيد.

● تعظيم القبور :

ومما حذَّر منه الإسلام أشد التحذير : تعظيم القبور ، وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضي إلى تعظيم القبور منها :

١- اتخاذها مساجد :

روى مسلم في « صحيحه » أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « ألا إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، أفلا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك » .

وعن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ ـ أي في حالة الاحتضار ـ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه . فإذا اغتم كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ». يُحَذِّر ما صنعوا . (متفق عليه) .

٢- الصلاة إليها :

ففي الحديث : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها ». (رواه مسلم) . أي لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة .

٣- إضاءتها وإيقاد السرج عليها :

في الحديث : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . (رواه أحمد والترمذي وغيرهما) .

٤- البناء عليها وتجصيصها :

روى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه بناء .

٥- الكتابة عليها :

لحديث جابر : أنه ﷺ نهى أن تُجصص القبور ، وأن يُكتب عليها . (رواه أبو داود والترمذي) .

٦- تعليتها ورفعها :

لحديث علي : أن النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبراً مشرفًا إلا سوَّاه . (رواه مسلم) .

كما جاء في «سنن أبي داود» نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجُرِّ ونحوها . ولهذا كان السلف يكرهون الآجر على قبورهم .

٧- اتخاذها عيدًا :

روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعًا : «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وروى أبو يعلى بسنده عن عليّ بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها ويدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثًا سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : «لا تتخذوا قبري عيدًا ، ولا بيوتكم قبورًا ، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم» . ومعنى اتخاذ القبر عيدًا قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ونحو ذلك .

وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض ، فإذا نهى عن اتخاذه عيدًا فقبر غيره أولى بالنهي ، كائنًا من كان . ويكفي أن يُصَلِّى ويُسَلِّم على الرسول ﷺ فتصله صلاته وسلامه حيثما كان .

• الحكمة في هذا التحذير :

والحكمة في نهي الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر كما رأينا في قوم نوح ، وكما هو مشاهد إلى اليوم . فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا معبودة ، ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . (رواه مالك).

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذَّر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام . فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادًا ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقِباب ، وأوقدوا عليها السُرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذرور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها

لثمًا وتقبيلاً ، ومنهم من يسجد لها ، ويُعَفِّر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعًا مستكينًا ، يستغيث بأصحابها ، يسأله ـ مشافهة ـ قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء ، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رِقاع إلى صاحب القبر ، وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

● التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها :

ومن الشرك الذي حاربه النبي ﷺ : التبرك بالأشجار والأحجار والقبور ونحوها . على اعتقاد أن لها سرًّا أو بركة خاصة ، ينالها من يتمسح بها ، أو طاف حولها ، أو زارها ، أو جلس إليها . وهذا مما يُفضي بمن فعله إذا تمادى فيه إلى الشرك الأكبر . فإن أصنام العرب الكبرى كانت إما صخرة كاللات ، أو شجرة كالعزى ، أو حجرًا كمناة ، ولهذا حذَّر النبي ﷺ منه وزجر عنه .

وقد روى الترمذي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر ـ وللمشركين سِدْرَة ـ شجرة نبق ـ يعكفون عندها ، وينوطون

بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . . فمررنا بسِدْرَة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٨) . لتركبن سنن من كان قبلكم » . (رواه الترمذي وصححه).

فالظاهر أنهم كانوا يريدون مجرد التبرك بهذه الشجرة وتعليق أسلحتهم عليها ، فزجرهم النبي ﷺ هذا الزجر الشديد ؛ سدًّا للذريعة إلى الشرك .

ومما يؤسف له أن كثيرًا من المسلمين قد انحرفوا عن هَدي رسول الله ﷺ واتبعوا سنن من كان قبلهم ، فاتخذوا لهم « أنصابًا » يتبركون بها ، يتمسحون بها ، ويدعون عندها ، ويتوسلون بها ، ويتعلقون بها تعلقًا يشبه تعلق المشركين بالأصنام . وكم في بلاد المسلمين من « ذواتِ أنواط » مما زجر عنه نبيهم ﷺ .

والواجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم خاصة إزالة هذا المنكر وهدم هذه الأنصاب ومحوها من شجرة أو عمود ، أو قبر أو خشبة ، أو عين أو حجر أو غيرها ؛

اقتداءً بما فعله النبي ﷺ حين بعث عليًّا وأمره بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض . كما في « صحيح مسلم » عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي عليّ رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ .. ألا أدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته .

قال الإمام أبو بكر الطرطوسي المالكي : ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن الناس يأتون الشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ فيصلون عندها ، أرسل ، فقطعها ؛ خوفًا على المسلمين من الفتنة .

فإذا كان هذا فعل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن ، وبايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ ، فماذا يكون حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي عظمت الفتنة بها ، واشتدت البلية بها ؟!

وقال الإمام الطرطوسي : انظروا ـ رحمكم الله ـ أينما وجدتم سِدْرَة أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي « ذات أنواط » فاقطعوها .

وعن المبرر بن سويد قال : صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [1] ، و﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [2] ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه . فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعًا ، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصلِّ ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وهذا من فقه عمر رضي الله عنه وحرصه على عقيدة العامة ، وخشيته عليهم من الغلو والانحراف .

● الألفاظ الموهمة للشرك :

ومما حذَّر منه النبي ﷺ : الألفاظ التي فيها إيهام للشرك وإساءة للأدب مع الله ، وذلك حماية منه لحمى التوحيد .

(أ) من ذلك قول القائل : ما شاء الله وشاء فلان ، أو باسم الله واسم الأمير ، أو اسم الشعب ، وقد مرَّ بنا إنكار النبي ﷺ

---

(١) أي سورة الفيل .

(٢) أي سورة قريش .

لمن قال له ذلك ، روى حذيفة عنه ﷺ قال :« لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » . (رواه أبو داود بسند صحيح).

(ب) ومن ذلك قولهم : لولا الله وفلان ، أو اعتمدت على الله وعليك ، وما شابه هذه الألفاظ ، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾(البقرة:٢٢) : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل ، على صفاة سوداء ، وفي ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الرجل وفلان . . هذا كله به شرك . (رواه ابن أبي حاتم).

(ج) ومن ذلك التسمي بأسماء الله تعالى ، أو بما لا ينبغي إليه لله .

روى أبو داود عن أبي شريح ، أنه كان يُكَنَّى أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم ». ثم كَنَّى بولده ، شريح أكبر أولاده .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم[1] عند الله رجل تسمى : ملك الأملاك . . لا مالك إلا الله » . قال سفيان بن عيينة مثل : شاهنشاه عند العجم ؛ لأن معناها ملك الملوك .

وفي رواية : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

(د) ومن ذلك أن يسمى الإنسان باسم معبد لغير الله ، كعبد الكعبة أو عبد النبي ، أو عبد الحسين ، أو عبد المسيح ، ونحو ذلك ، فقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم التسمية بذلك ، باستثناء عبد المطلب .

(هـ) ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس ؛ فإن سب الدهر حينئذ كان نوعًا من شكوى الله تعالى أو السخط عليه ؛ فإنه هو الذي يُدبِّر الأمر ، ويُقلِّب الليل والنهار ، وهو الفاعل لكل ما في الكون من أحداث .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، أقلِّب الليل والنهار » .

* * *

---

(١) أخنع اسم : أوضع اسم وأذله .

آثار التوحيد في الحياة

إن التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتي أينع الثمرات ، وحقق أنفع الآثار في الحياة . ومن ثمرات التوحيد وآثاره :

(أ) **تحرير الإنسان** :

فالشرك بكل صوره ومظاهره ليس إلا امتهانًا للإنسان ، وإذلالاً له ، حيث يلزمه الخضوع للمخلوقات ، والعبودية لأشياء أو أناس لا يَخْلقون شيئًا وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نُشورًا .

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية إلا لربه الذي خلقه فسوّاه ، تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله .

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة ، ودعوة الرسول خاصة ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن معنى « لا إله إلا الله » : إعلان عام لتحرير البشر ، وإسقاط لكل الجبابرة من عروش تألههم الكاذب ، وإعلاء لجباه المؤمنين فلا تطأطئ إلا ساجدة لله رب العالمين .

(ب) تكوين الشخصية المتزنة :

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي تميزت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها ، وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد تتجه إليه في الخلوة والجلوة ، وتدعوه في السرَّاء والضرَّاء ، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة .

بخلاف المشرك الذي تقسمت قلبه الآلهة ، وتوزعت حياته المعبودات ، فحينًا يتجه إلى الله ، وأحيانًا إلى الأصنام ، وحينًا إلى هذا الصنم ، وحينًا إلى ذاك .

ومن هنا قال يوسف عليه السلام : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩) . وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ

وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (الزمر:٢٩) . مثَّل المؤمن بعبد له سيد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه ، فوقف عند ما يُرضيه واستراح إليه ، ومثَّل المشرك بعبد له أكثر من سيد ، هذا يوجهه إلى الشرق ، وذاك إلى الغرب ، وهذا يأخذه إلى اليمين ، وآخر إلى اليسار ، فهم شركاء متشاكسون ، وهو بينهم مشتت موزع لا ثبات له ولا قرار .

(جـ) التوحيد مصدر لأمن النفس :

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمنًا وطمأنينة ، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم : الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف مما بعد الموت . .

أما المؤمن الموحد فلا يخاف شيئًا ولا أحدًا إلا الله ، ولهذا تراه آمنًا إذا خاف الناس ، مطمئنًا إذا قلق الناس ، هادئًا إذا اضطرب الناس ، وفي هذا يذكر القرآن حوار إبراهيم مع قومه المشركين حين خوَّفوه بأصنامهم وآلهتهم الزائفة ، فرد

عليهم متعجبًا ومعجِّبًا بقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٨١) . ثم بيَّن سبحانه وتعالى من يستحق الأمن من الفريقين فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:٨٢) . وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة . . وهذا أمن الدنيا . وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى ؛ لأنهم أخلصوا لله ولم يخلطوا توحيدهم بشرك .

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قلنا : يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال :« ليس كما تقولون . أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » (لقمان:١٣).

فمعنى ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ : أنهم أخلصوا دينهم لله ، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك .

(د) التوحيد مصدر لقوة النفس :

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة ؛ لما تمتلئ به نفسه من الرجاء في الله ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزحزحه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث.

كلما ألمت به نازلة ، أو حلَّت بساحته شدة ، رفض اللجوء إلى الخلق ، واتجه بقلبه إلى الخالق ، إياه يسأل ، ومنه يستمد ، وعليه يعتمد ، لا يرجو غيره في كشف الضر ، وجلب الخير ، ولا يمد يده إلى أحد إلا إلى الله ضارعًا داعيًا منيبًا إليه .

شعاره قول النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ». وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(يونس:١٠٧).

ألا ترى إلى هود عليه السلام حين خوَّفه قومه بكيد الأصنام له قال : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٤-٥٦) منطق قوي، يُعبِّر عن نفس واثقة، وعزيمة صُلبة، وإيمان لا يهن ولا يستكين، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف؛ لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٤٩).

(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة:

وإذا كان التوحيد يُعد أساسًا لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته، فهو أساس أيضًا لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية؛ لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أربابًا لبعض. فأما إذا كانوا كلهم عباد الله، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تُختم بهذه الآية الكريمة: ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وكان من أدعية النبي ﷺ عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »[1] .

وهذه الشهادات الثلاث المذكورة من النبي ﷺ يرتبط بعضها ببعض .

فإعلان الأخوة الإنسانية العامة ـ أن العباد كلهم إخوة ـ مبني على الشهادتين الأوليين : تفرد الله تعالى بالألوهية ، فلا شريك له ولا أرباب معه ، ولا يستحق الخضوع والعبادة غيره .

وعبودية محمد ﷺ لله ، وتبليغه عنه ، ينفي عنه كل شبهة أو رائحة للألوهية ، فليس إلهًا ، ولا ابن إلَه ، ولا ثلث إله ، كما زعم النصارى للمسيح .

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم .

وإذا تقررت هاتان الحقيقتان : ألوهية الله وحده ، وعبودية الناس جميعًا له ، وعلى رأسهم محمد رسوله ومصطفاه ﷺ - ترتب على ذلك تقرير الحقيقة الثالثة وهي : أن عباد الله إخوة متساوون ، فلا تمييز عنصري ، ولا تفرقة بين الألوان ، ولا تفاضل بالأنساب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣).

* * *

مفاسد الشرك وأضراره

للشرك مفاسد وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع أهمها:

١ - الشرك مهانة للإنسانية :

إنه إهانة لكرامة الإنسان وانحطاط بقدره ومنزلته ، فقد استخلفه الله في الأرض وكرّمه ، وعلّمه الأسماء كلها ، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه ، وجعل له السيادة على كل ما في هذا الكون ، ولكنه جهل قدر نفسه ، وجعل بعض عناصر هذا الكون إلهًا معبودًا يخضع له ويذل ويسجد ، وهو سيد الخليقة المكرم ، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

(فصلت:٣٧).

وأي إهانة للإنسان أكبر من أن يرى - إلى يومنا هذا - مئات الملايين من البشر يعبدون البقرة التي سخرها الله للإنسان ؛ لتخدمه وهي صحيحة ، ويأكلها وهي ذبيحة ، فإذا هي معبود مقدس؟! ولهذا صوّر القرآن الكريم كيف ينحط

الشرك بأهله فقال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١) .

٢- الشرك وكر للخرافات :

الشرك وكر للخرافات والأباطيل ؛ لأن الذي يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون ، من الكواكب أو الجن أو الأشباح أو الأرواح أو غير ذلك ، يصبح عقله مستعدًا لقبول كل خرافة وتصديق كل دجال . وبهذا تروج في المجتمع المشرك بضاعة الكهنة والعرافين والسحرة والمنجمين ، وأشباه هؤلاء ممن يدَّعون معرفة الغيب ، والاتصال بالقُوى الخفية في الوجود .

كما يشيع في مثل هذا المجتمع إهمال الأسباب والسنن الكونية ، والاتكال على التمائم والرُقى الشركية والسحر والتولة ونحوها .

٣- الشرك ظلم عظيم :

الشرك ظلم عظيم ؛ ظلم للحقيقة ، وظلم للنفس ، وظلم للغير .

ظلم للحقيقة ؛ لأن أعظم الحقائق أن لا إله إلا الله ولا رب غيره ، ولا حَكَم سواه ، ولكن المشرك اتخذ غير الله إلهًا ، وبغى غير الله ربًّا ، وابتغى غيره حَكَمًا .

وظلم للنفس ؛ لأن المشرك جعل نفسه عبدًا لمخلوق مثله أو دونه ، وقد خلقه الله حرًّا .

وظلم للغير ؛ لأن من أشرك بالله غيره ، فقد ظلمه ، حيث أعطاه من الحق ما ليس له .

٤- الشرك مصدر للمخاوف :

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام ، كما أن التوحيد مصدر للأمن والطمأنينة . فإن الذي يتقبل عقله الخرافات ويُصَدِّق الأباطيل والتُرهات ، يصبح خائفًا من جهات شتى : من الآلهة وسدنة الآلهة ، ومن الأوهام التي ينشرها هؤلاء السدنة ، والكهنة ، وأتباعهم ، ويروجونها بين الناس . لهذا ينتشر في جو الشرك التطير والتشاؤم والرعب من غير سبب ظاهر ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾

(آل عمران: ١٥١).

٥- الشرك معطل لإيجابية الإنسان :

والشرك مُعَوِّق للعمل النافع ، مُعَطِّل لإيجابية الإنسان واعتماده على نفسه - بعد الله - ذلك لأنه يعلم أصحابه الاتكال على الشفعاء والوسطاء ، فهم يرتكبون الموبقات ، ويقترفون الآثام ، معتمدين على أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله .

وهذا ما كان يعتقده مشركو العرب في آلهتهم وأصنامهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:١٨).

ومثل هؤلاء النصارى الذين يعملون ما شاء لهم الهوى من المنكرات معتقدين أن ربهم - المسيح - قد كفَّر عنهم الخطايا حين صُلِبَ - بزعمهم - وفدى البشر .

٦- آثار الشرك في الآخرة :

تلك هي آثار الشرك في الدنيا ، أما في الآخرة فيكفي أنه الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨).

وليس للمشرك مصير إلا النار ، أما الجنة فحرام عليه أن يدخلها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقال ﷺ : « من لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار » .

وفي الختام : نستعيذك اللَّهم مما استعاذ منه عبدك ورسولك محمد : « اللَّهم إنَّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

* * *

النادي الشبابي

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الإيمان بالله أصل العقائد كلها (٢-٢٥)	
تركيز الإسلام على التوحيد	٥
دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى	٨
دلالة العقل	٩
دلالة النقل	١٣
التوحيد جوهر الإيمان بالله	١٤
التوحيد المأمور به	١٩
أولاً : توحيد الربوبية	٢١
ثانيًا : توحيد الألوهية	٢٢
معنى العبادة	٢٤
صور العبادة وأنواعها	٢٤
أهمية توحيد الألوهية	٢٥
لا إله إلا الله عنوان التوحيد (٢٦-٤٠)	
التوحيد هو المهمة الأولى للرسل	٢٧

التوحيد شعار الإسلام..... ٢٩
التوحيد حق الله على العباد..... ٣٠
التوحيد رسالة المسلم في الحياة..... ٣٢
التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم..... ٣٣
بماذا يتحقق التوحيد؟..... ٣٤
أولاً : إخلاص العبودية لله..... ٣٤
ثانيًا : الكفر بالطواغيت..... ٣٧
ثالثًا : اتقاء الشرك والحذر منه..... ٤٠

الشرك

(٤١-٦٦)

أنواع الشرك ـ الشرك الأكبر جلي وخفي..... ٤٢
من الشرك الأكبر الخفي: الدعاء والاستعانة بالموتى ٤٣
من الشرك الأكبر : اتخاذ غير الله مشرعًا..... ٤٥
ألوان من الشرك الأصغر ـ الحلف بغير الله..... ٤٩
لبس الحلقة والخيط..... ٥٠
تعليق التمائم..... ٥٢
الرقى..... ٥٤

السحر ٥٥
التنجيم من السحر ٥٧
التولة سحر وشرك ـ الكهانة والعرافة ٥٨
النذر لغير الله ٦٠
الذبح لغير الله ٦٢
الطيرة شرك ٦٥

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك
(٦٧-٧٩)

الغلو في تعظيم النبي ﷺ ٦٧
الغلو في الصالحين ٦٨
تعظيم القبور ـ اتخاذها مساجد ٧٠
الصلاة إليها ـ إضاءتها وإيقاد السرج عليها ـ البناء
عليها وتجصيصها ـ الكتابة عليها ٧١
تعليتها ورفعها ـ اتخاذها عيداً ٧٢
الحكمة في هذا التحذير ٧٣
التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها ٧٤
الألفاظ الموهمة للشرك ٧٧

آثار التوحيد في الحياة

(٨٠-٨٧)

(أ) تحرير الإنسان..... ٨٠
(ب) تكوين الشخصية المتزنة..... ٨١
(جـ) التوحيد مصدر لأمن النفس..... ٨٢
(د) التوحيد مصدر لقوة النفس..... ٨٤
(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة..... ٨٥

مفاسد الشرك وأضراره

(٨٨-٩٢)

الشرك مهانة للإنسانية..... ٨٨
الشرك وكر للخرافات ـ الشرك ظلم عظيم..... ٨٩
الشرك مصدر للمخاوف..... ٩٠
الشرك معطل لإيجابية الإنسان..... ٩١
آثار الشرك في الآخرة..... ٩١
محتويات الكتاب..... ٩٣

النادي الشبابي